جامعة صفاقس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
بصفاقس

بحوث جامعيـــة

العدد 8 لسنة 2010

بحوث جامعية عدد 8 - 2010

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

UNIVERSITE DE SFAX
FACULTE DES LETTRES ET SCIENCES
HUMAINES DE SFAX

Recherches Académiques
Academic Resarch

Numéro 8 - 2010

جامعة صفاقس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بصفاقس

بحـــوث جـامعيـــة

مجلة محكمة

العدد 8 لسنة 2010

مجلة بحوث جامعية

الإدارة و التحـرير

العنوان : طريق المطار كلم 4.5 ـ 3029 صفاقس
العنوان البريدي : ص.ب. 11683000 صفاقس
العنوان الإلكتروني : www.flshs.rnu.tnSite web
الهاتف : 74670557 .216. 00 – 74670558 . 216. 00
الفاكس : 74670540 . 216 .00

المدير المسؤول :محمد بن محمد الخبو
رئيس التحـرير :منير التريكـي

هيئةالتحـرير :

- منير التريكي
- عقيلة السلامي البقلوطي
- محمد بن عياد
- أحمد الجـوة
- عبد العزيز العيادي
- محمد بوعتور
- محمد عزيز نجاحي
- محمد الخبـو
- ناجي العونلـي
- عبد الحميد الفهري
- علي الزيـدي
- محسن ذياب
- علي بن نصر
- الحبيب مجـدوب
- البشير العربـي
- عبد الفتاح القاصح

تراتيب النشـر بالمجلـة

1- "**بحوث جامعية**" مجلّة محكّمة تنشر المقالات في مجال الآداب والعلوم الانسانية وتصدر كل ستة أشهر.

2- تنشر المجلة البحوث التي لم يسبق نشرها.

3- تقدم البحوث في ثلاثة نظائر ورقية لا يحمل اثنان منها اسم كاتب المقال، وعلى حامل رقمي في صيغة word آخر نسخة، وتكون مصحوبة بملخص في لغتين أخريين غير لغة البحث وفي حدود 15 سطرا.

4- تكون الإبانات (جداول- تصاميم-خرائط...) في مقاس المجلة ومعالجة وفق المنظومات الرقمية المتخصصة.

5- يلتزم الباحثون بإدخال التعديلات التي يقترحها المحكمون.

6- يكون حجم البحث في حدود 45 ألف علامة باحتساب الفراغات والهوامش وفي كل الحالات لا يتجاوز 25 صفحة.

7- لا تعاد البحوث الواردة إلى المجلة سواء نشرت أم لم تنشر.

8- يثبت نظام الهوامش والإحالات في أسفل الصفحة ويراعى فيها التسلسل الآتي: الكاتب: عنوان البحث أو المرجع، مكان الطبع، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.

9- ترسل البحوث إلى عنوان المجلة وباسم مديرها أو رئيس تحريرها.

كلمة هيئة التحرير

هذا عدد جديد لمجلة بحوث جامعية، وقد رأت هيئتها أن يكون هذا العدد على نحو ما كانت عليه الأعداد الأولى منها. وهي أعداد نشرت فيها مقالات متعددة الاختصاصات، مختلفة المواد، ولكن هذه السياسة في نشر الأعمال العلمية على هذا النحو لا تلغي البتة ما كان أقر من توجيهات تقتضي أن تنشر الأعمال ضمن أعداد مختصة يتعلق كل عدد منها بموضوع بحثي تشترك فيه اختصاصات متقاربة أو متجانسة. ومن قبيل ذلك عددا "الكتابة الراسمة" و "الاستبداد والحرية".

ولذلك فنحن عاقدون العزم على أن تنشر الأعمال العلمية إما في نطاق عدد مختلط المواد وإما في نطاق عدد متجانسها، وكلما تجمعت المادة العلمية بعد تحكيمها في النطاق الأول أو الثاني وقع نشرها في هذا العدد أو في ذاك.

عن هيئة التحرير

محمد بن محمد الخبو

فهرس المحتويات

		الصفحة
محمد بن محمد الخبو	مجنون بني عامر من الشَخص إلى الشَخصيَة: بين مُتباين النصوص والمقامات	9
أحمد الجوة	الإشكال المصطلحي ونقد الشعر الحر	23
خالد السويح	عمل القسم وبنيته الإخبارية	79

مجنون بني عَامِرٍ من الشّخص إلى الشّخصيّة : بين مُتَباين النّصوص والمقامات

محمد بن محمّد الخبو

ملخص :

إن موضوع هذا العمل شخصية مجنون بني عامر، وقد ورد ذكرها في أخبار مندرجة في مدونات مختلفة، ومتداولة بين مقامات متغايرة.

وورودها على هذا النحو جعلها شخصية تتسم بسمات تاريخية أحيانا، وتتشكل تشكلا تخييليا في أحيان أخرى. و الرهان في هذا المبحث أن ندرس أحوال شخصية واحدة في متباين النصوص ضمن طريقتين طريقة التعالي الخطابي الذي يتجاوز مبدأ المحايثة، وطريقة ربط خبر المجنون في النصوص بالخبر جاريا في خطابات متباينة المقامات.

Abstract

This paper deals with the persona of Majnoun Beni Amer that has been referred to in many corpora and in different contexts.

This mode of reference to it has caused this persona to carry historical traits, at times, and imginary construction, at other times. The bone of contention in this research is to study the profile of one character across different texts in terms of two one abstract discursive method that goes : approaches beyond the immediate context and another method linking the specific narrative on the Fool in the texts to the general over-arching narrative exemplified in different contexts.

I. مداخل

إنّ حديثنا عن مجنون بني عامر[1] هَهُنا لا يندرج في مبحث تاريخيّ خالص، وإنّما هو يندرج في سعينا إلى استصفاء بعض الصّور للشّخصيّة المذكورة وقد جرت الأقوال في شأنها في عديد كتب الأدب والأخبار، فتشابهتْ وتباينتْ، وتقاربتْ وتنابذتْ، واجتمعتْ وتفرّقتْ.

وما كان المجنون العامريّ ليحظَى باهتمام كتب الأدب والتّراجم، لولا ما كان يَسِمُ أفعالَه من طرافة متأتّية من ناحية جنونه الحاصل له بابتعاد ليلاه عنه وقد تزوّجتْ بآخرَ بحسب ما تحكيه الأخبارُ عنه، لا سيّما أنّ الأخبار النّادرة والطّريفة والغريبة قد أصبحت في مراحلَ متأخّرة من مقوّمات الكتابة النّثريّة، باعتبارها مظهراً من مظاهر العُدول في الأدب، فكأنّها من هذه الزّاوية بمنزلة الصّور في الشّعر.

إنّ ما أحيط بالمجنون من أخبارٍ موسومةٍ بالطّرافة والنُّدْرة، هو الذي جعلنا لا نتعامل معه باعتباره شخصاً تاريخيًّا فحسب، بل باعتباره شخصيّة فنّيّة[2] أدْبَتْها النّصوص بتلوين صورها والتّفنّن فيها، كما أدْبتها مقامات القول التي تجري فيها[3] بحسب ما سنعْرض له لاحقاً.

---

1) يذكُر الأصْبَهَاني أنّ اسم «مجنون بني عامر» الذي تعلّق بليلى يقترن بأربعة أشخاص، كلّ واحد يُدعى مجنون بني عامر وكلّ واحد عشق صاحبة له سُمّيت «ليلى» وهم: مزاحم بن الحارث المجنون، ومُعاذ بن كُليب المجنون، والمهْدِي بن الملوّح المجنون، وقيس بن الملوّح الذي يهمّنا.
انظر: الأغاني، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، ط. 1983 (ط. دار الثّقافة، بيروت)، ج. 2، ص ص: 7-9.
وانظر: التّنوخي (ت. 384 هـ)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، دار صادر، بيروت، ط. 1، 1972، ط. 2، 1995، ج. 5، ص: 101. ذكر التّنوخي ثلاثة مجانين: معاذ ليلى وهو معاذ بن كليب، أحد بني عامر بن عبيد، وقيس بن معاذ، ومهدي بن الملوّح الجعدي، ص: 101.

2) إنّ تمييزنا بين الشّخص (Personne) والشّخصيّة (Personnage)، هو تمييز بين ما هو تاريخيّ واقعيّ يدخل في باب التّوثيق، وبين ما هو كلاميّ يدخل في باب التّخيّل (Fiction). انظر:
- Pedro Pardo Jiménez, Personne et personnage dans l'infraction métaleptique, in : Le personnage romanesque (collectif), Cahiers de narratologie, n° 6, Associations des publications, 1995, p. 329.
- Philippe Hamon, Statut sémiologique du personnage, in : Poétique du récit (collectif), éd. Seuil, 1977, p. 116.

3) إنّ رواية الأخبار كثيراً ما تخضع لمقتضيات أحوال الكتابة. فالمؤلّفون كثيراً ما يروون هذه الأخبار في مقامات يريدون بها أن يستدرجوا المتلقّي بما يخبرون عنه. ولذلك فإنّ تناول هذه الأخبار من جانب تداولها قد يسهم في تأديبها. فالأدبيّة من هذه الجهة ترتبط بالمقام الذي تتداول فيه الأخبار. انظر:
- Douwe Fokkema, Questions épistémologique, in : Théorie littéraire (collectif), Sous la direction de Marc Angenot, Jean Bessière, Douwe Fokkema, Eva Kushner, éd. P.U.F., 1989, p. 337.

فتعاملنا مع مجنون بني عامر شخصاً مندرجاً في ما يسمّيه بعضهم قصّة مرجعيّة (Récit référentiel) تجري مجرى السّيرة[1] يقتضي اعتباره من جهة مماثلته للحقيقة التّاريخيّة[2]. أمّا تعاملنا معه شخصيّة متخيّلة فيقتضي اعتباره من جهة احتمال وقوعه (Vraisemblance)، أي إنّ حضور الشّخصيّة في النّصّ لا يحيل على ما وجد بالفعل في التّاريخ، وإنّما على ما يمكن أن يقع كما هو الحال في القصص التّخيّليّ.

وقد ذهبنا هذا المذهب في التّعامل مع المجنون جارياً ذكرُه في نصوص كثيرة كتبها كتّاب مختلفون. و قصدنا أن ننظر في صوره متشابهةً متنافرةً من خلال متباين النّصوص والمقامات. فليس منطلَق عملنا النّصُّ المفردَ ولا الأثر الواحد، وإنّما مدار اهتمامنا على بعض النّصوص المتفرّقة في الآثار، المجتمعة في حديثها عن مجنون بني عامر، في علاقته بليلى[3] وذلك ضمن منهج في الدّرس يقتضي التّعامل مع مجموعة من النّصوص يتجلّى فيها ضرب من التّعالي الخطابيّ (Transcendance discursive) الذي يتجاوز مبدأ المحايثة (Immanence) المجحف. فكلّ خطاب لا يدلّ على المعنى من خلال مكوّناته الخاصّة فحسب، بل من خلال ما يتجاوزه ويَصِله بخطابات أخرى[4].

وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر في القضيّة المذكورة من جهتين:

-من جهة تناول المجنون العامريّ من الشّخصّ إلى الشّخصيّة بين متباين النّصوص.

-ومن جهة تناوله متغيّراً في متباين المقامات.

- Mihaly Szégedy-Maszák, Le texte comme structure et construction, in : Théorie littéraire, pp. 209-210.

1) استعمل فيليب لوجون مصطلح القصّة المرجعيّة في نطاق حديثه عن جنسي السّيرة (Biographie) والسّيرة الذّاتيّة (Autobiographie). انظر كتابه:

P. Lejeune, Le pacte autobiographique, éd. Seuil, 1975, p. 18.

2) في النّصّ التّاريخيّ يكون التّركيز على مبدإ مماثلة المتحدّث عنه للشّخص التّاريخيّ. انظر:

P. Lejeune, Le pacte autobiographique, p. 36.

3) سنعتمد في هذا المبحث على نصوص تختصّ بأخبار المجنون في الآثار التّالية:

- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ج. 2.
- القاضي التّنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج. 5.
- محيي الدّين بن عربي (ت. 638 هـ.)، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، دار صادر، بيروت، (د. ت.)، ج. 2.

4) انظر في هذا المجال:

Manuel Ángel Vazquez Medel, La construction du personnage comme procès transdiscursif, in : Le personnage romanesque, p. 29.

II. المجنون من الشّخص إلى الشّخصيّة

1. بين متباين النّصوص

كان المجنون العامريّ في تعلّقه بليلى موضوعاً لأخبارٍ عديدة في الأثر الواحد كـ«الأغاني» وفي الآثار المختلفة المتباينة الأعصر، شأن «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للقاضي التّنوخي، و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» لمحيي الدّين بن عربي. وقد تناولت هذه الآثار أخبار المجنون على أنّها من التّراجم أو ما يُسمّى أيضاً بالسّير. "وتنهض التّراجم على قواعد محدّدة تهدف إلى التّعريف الموجز بالمترجم له، اسماً وكنية ولقباً، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبيّ أو العلميّ تتناسب وأهمّيّة الشّخص. وتتراوح هذه التّراجم بين أسطر قليلة [...] وصفحات طويلة تورد الأخبار المستفيضة"[1].

وإذا نظرنا في أخبار المجنون في الآثار المذكورة، وقفنا على نزوع إلى ضبط المعلومات التي تتعلّق بشخص قيس بن الملوّح ونسبه ووضعه العائليّ، كما نجد اشتراكاً بين النّصوص في حديثها عن تعلّقه بليلى وما ترتّب على ذلك من جنونه بسبب تزوّجها برجل آخر. ومن ذلك ما جاء في كتاب الأغاني من تحديد لنسبه وكلفه بليلى ولجنونه: "هو على ما يقوله مَنْ صَحَّحَ نسبَه وحديثَه قيس، وقيل: مَهديّ والصّحيح قيس بنُ الملوّح بنِ مُزَاحِمِ بْنِ عُدَسَ بنِ ربيعة بن جعدة بن كعْب بن رَبيعة بن عَامِر بْنِ صَعْصَعة. ومن الدّليل على أنّ اسمَه قيس قول ليلى صاحبته: ألا ليت شعري والخطوب كثيرة: متى رَحْلُ قَيْسٍ مستقِلٌ فراجع، [...] وأخبرني الأخفش عن السّكّري عن أبي زيَادٍ الكِلاَبيّ قال: ليلى صاحبةُ المجنون هي ليلى بنت سعدِ بنِ مَهديّ بن ربيعة بن الحَريش بن كعْب بن ربيعةَ بن عَامر بن صَعْصعة [...] أخبرني جميل العتكيّ قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثنا عونُ بن عبد الله العامِريّ أنّه قال: ما كان واللّه المجنونُ الذي يعْزونه إلينا مجنوناً إنّما كانت به لوثةٌ وسَهوٌ أحدثهما به حبُّ ليلى"[2].

وممّا ورد في النّشوار قول التّنوخي: "كان في بني عامر جارية من أجمل النّساء لها عقلٌ وأدبٌ، يقال لها ليلى بنت مَهدِي فبلغ المجنونَ خبرُها وما هي عليه من الجمال والعقل وكان صبًّا بمحادثة النّساء، فعمد إلى أحسن ثيابه فلبسها وتهيّأ. فلمّا جلس إليها وتحدّث بين يديها أعجبته ووقعت بقلبه"[3]. ويذكر ابن

---

1) عبد الله إبراهيم، السّرديّة العربيّة (بحث في البنية السّرديّة للموروث الحكائيّ العربيّ)، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، 1992، ص: 130.

2) كتاب الأغاني، ج. 2، ص ص: 5، 8، 33.

3) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج. 5، ص: 102.

عربي خبر جنون قيس من الملوّح وما لحقه من سوء فيقول: "حدّثنا يونس بن يحيى، نبّأ أبو بكر بن أبي منصور [...] قال أبو عمر الشّيباني: لمّا ظهر بقيس من الجنون ما ظهر ورأى قومه ما ابتلِيَ به اجتمعوا إلى أبيه"[1].

إنّ هذه الشّواهد تشترك في الإحالة على شخص قيس بن الملوّح الذي نُعت بالجنون. وهذا الشّخص أو مايسمّيه «هامون» (Hamon) بالشّخصيّة المرجعيّة[2] (Personnage référentiel) ذات البعد التّاريخيّ وَرَدَ في سياق أخبار ذات نزعة تأريخيّة تتجلّى في ما يلي:

-اعتماد الأخباريّين على الوثائق الشّفويّة القائمة بالأسانيد وفيها[3]، فاعتماد الوثيقة في الإخبار هو حدّ فاصل بين التّاريخ والتّخيّل كما يرى بول ريكور (Paul Ricœur)[4].

-إنّ ما ذُكر من أخبار يندرج في نقل ما مضى، ويبدو أنّ الأخباريّ خاضع في ما ينقل لإيراد ما كان. فهو في ذلك شبيه بالمَدِين الذي عليه أن يسدّد ديناً[5]؟

-ولذلك فإنّ ما يُقدّم من أنباء عن المجنون منزوعٌ فيه إلى جعل المُقدّم مشابهاً لما حَصَل أو مطابقاً له.

-إنّ ضبط نسب قيس بن الملوّح، وليلى صاحبته لمّمّا يرتبط بمقتضيات التّراجم والسّير. وقد كان علم الأنساب عند العرب عِلْماً تُضبط به هويّة الشّخوص التّاريخيّة ولا سيّما المشهورة في مجالات السّياسة والدّين والثّقافة وغيرها.

غير أنّ هذه السّمات التّاريخيّة الموسومَ بها المجنون، إنّما هي سمات ظاهرة. وهي -متى قارعنا النّصوص المنبئة عنه بعضَها ببعض- تبيّن لنا أنّها تنطوي على الكثير من مظاهر التّباين والاختلاف إن في الأثر الواحد كما هو الشّأن في الأغاني وإن في سائر الآثار المختلفة.

فأبو الفرج الأصبهاني يذكر في أكثر من مناسبة أنّ أخبار المجنون فيها الكثير من التّزيّد والصّنْعَة[6]. وهو إلى ذلك يورد الأخبار المختلفة في شأن جنونه.

---

1) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج. 2، ص: 209.

2) انظر: P. Hamon, Statut sémiologique du personnage, p. 122.

3) لم نذكر السّند في الشّاهد الذي أخذناه من النّشوار، وهو موجود في الخبر.

4) انظر:

P. Ricœur, Temps et récit, t. III, Le temps raconté, éd. Seuil, Paris, pp. 203-204..

5) الصّورة أخذناها من المرجع السّابق، ص: 204.

6) انظر: الأغاني، ص ص: 22، 25، 29، 51، 72.

فهو مسلوب العقل عند بعض الرّواة[1] وهو عند آخرين غير ذلك وإنّما كانت به لوثة وسَهو[2]. ويُقِرُّ ابن عربي ظاهرة الجنون تارة كما تفهم عند النّاس[3]، وتارة أخرى يرْتقِي بالمجنون إلى مصافّ المتصوّفة الذين لا يتعاملون مع الجسد الظّاهر، وإنما يتعاملون مع الموجودات تعاملاً مثاليًا[4]. فهو لا يحبّ ليلى شخصاً وإنما يحبّ مثالاً لليلى في نفسه[5]. أمّا في نشوار المحاضرة، فيبدو أنّ قيساً يكون مجنوناً في غياب ليلى، ويرجع إليه عقله عندما تُذكر له[6].

وعلى هذا النّحو يفقد شخص المجنون الكثير من سمات الحقيقة التي يتّشح بها ظاهراً، وينزَعُ إلى أن يكون شخصيّة متخيّلة (Personnage fictif) تتكاثر صورها وتشكّلاتها في النّصوص المتباينة فتنزاح عن التّاريخ نحو الأدب لا سيّما أنّ السّمة الوثقيّة التي تُكتسب من الأسانيد تتهافت إذا عرفنا أنّ الأخباريّين غالباً ما يصطنعون أسانيد أحاديثهم إيهاماً بالتّوثيق والتّاريخ، والحال أنّ الخلل يسري فيها، بحيث لا نقف على اتّصال لحلقات الإسناد بعضها ببعض. فكثيراً ما يكون الإسناد مشتملاً على رواة لا أسماء لهم، على غرار ما نجده مثلاً في كتاب "الأغاني" الذي نقف فيه على أسانيد من قبيل قوله: "وذكر أبو نصر أحمد بن حاتم عن جماعة من الرّواة"[7]، وقوله: "أخبرني عليّ بنُ سليمان الأخفشُ قال حدّثني محمّد بنُ الحسين بن الحرون قال حدّثني الكسرويّ عن جماعة من الرّواة"[8]. ومن ذلك ما نجده أيضاً في بعض أسانيد ابن عربي كقوله: "أخبرني بعض الأدباء في تلطّف محبّته"[9].

وبسبب هذه الأساليب في الإسناد، يصبح الرّواة الذين هم في الأصل كائنات تاريخيّة أو بحسب ما يسمّيهم «بارت» واصلات السّماع[10](Embrayeurs d'écoute)،

---

1) نفسه، ص: 32.

2) نفسه، ص: 33.

3) محاضرة الأبرار، ص: 209.

4) نفسه، ص: 210.

5) نفسه، والصّفحة نفسها.

6) النّشوار، ج. 5، ص ص: 104، 106، 109.

7) الأغاني، ج. 2، ص: 17.

8) نفسه، ص: 24.

9) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج. 2، ص: 210.

10) انظر:

R. Barthes, Le discours de l'histoire, in : Essais critiques, le bruissement de la langue, éd. Seuil, 1984, p. 154.

كائنات مزعومة (Des êtres feints) يُوهَم بأفعالها دون أن تُنجز على وجه الحقيقة[1]. وعندئذ يصبح عمل التلفظ ضرباً من اللعب ظاهره تلفظ تاريخيّ وباطنه تلفظ فيه الكثير من التصنع والتمويه.

والمؤلفون يُوهمون بالنزوع إلى التوثيق لشخص تاريخيّ، ويتقنعون بذلك ليوردوا أخباراً يعلقونها بهذا الشخص فيها الكثير من التزيّد والإبداع، فيكون القارئ موزّعاً بين أن يقرأ النصوص ضمن عَقد مرجعيّ، وبين أن يقرأها ضمن عَقد تخيّليّ وقد بدت صور للمجنون غريبة طريفة. ومأتى الغرابة هذا الكائن المألوف وهو يأتي غريب الأعمال وعجيبها. فالنصوص التي بين أيدينا تحيلنا على المجنون الوله بليلى، مرتبطا بكائنات أخرى كالحمام والظباء والهواتف التي تذكّره بليلى "فمرّ بحمامةٍ تدعو على أيكة فوقف يبكي"[2]، "وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحاً يصيح: يا ليلى في ليلة ظلماء أو توهّم ذلك فقال لبعض من معه، أما تسمع هذا الصّوت؟"[3]. "قال والله ما أعجبني شيء قطّ فذكرت ليلى إلاّ سقط من عيني وأَذْهَبَ ذكرُها بشاشته عندي غير أني رأيت ظبياً مرّة فتأمّلته وذكرت ليلى فجعل يزداد في عيني حسناً"[4]. وأيّ صورة أجمل من صورة المجنون هذا وهو ينادي ليلى ليلى في محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار "قرُبَ يوماً من حيّ ليلى في وادٍ كثير الثلج في زمن البرد، وهو يأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده فتذيبه حرارة الفؤاد"[5]. أليست هذه التصاوير المتنوّعة واردة إلى النثر القصصيّ من أشعار العرب التي نقف فيها على تشبيه المرأة بالظبي وبالحمام وتشبيه حدّة العشق بالنار؟ ألا يتنزّل ذلك في نزوع الأدباء إلى النادر من الأفعال يُضَمّنونه أعمالهم حتى يَنْسُجُوا ضروباً من العدُول عن الأخبار العاديّة؟

ولعلّ من أهمّ مظاهر العدول، تلك التي تظهر بين بعض النصوص القائمة في آثار مختلفة وقد اشتركت في تحديد المواضيع عن المجنون الباحث عن ليلى. ولكنها تباينت في التفاصيل تبايناً كبيراً يعكس مدى التغيير الذي شمل صورة

---

1) ميّز «شافير» بين ثلاثة أنواع من المتلفّظين:
- المتلفّظ الحقيقيّ: وهو الذي يمثّله المؤلّف، وهو المتلفّظ الفعليّ.
- المتلفّظ المتخيّل: وهو المتلفّظ الذي يصنعه المؤلّف ويوكل إليه التلفّظ.
- المتلفّظ يكون مموّهاً (Énonciateur feint) إذا تماهي مع شخصٍ وُجِد في الواقع وقد دخل عالَم التخيّل. انظر:

Jean Marie Schaeffer, Qu'est ce qu'un genre littéraire ? éd. Seuil, 1989, p. 83.

2) الأغاني، ج. 2، ص: 42.

3) نفسه، ص ص: 44-45.

4) نفسه، ص: 60.

5) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: 210.

مجنون بني عامر. فعدل به عن أن يكون كائناً تاريخيًا ثابت الملامح، قارّ الأعمال. لنأخذ النموذجين التاليين مثالاً لذلك:

◆ النموذج الأوّل من الأغاني، (ج. 2، ص ص: 28-29)

"حدّثني عمّي عن عبد الله بن أبي سَعْدٍ عن إبراهيم بن محمّد بن إسماعيل القُرَيْشيّ قال حدّثنا أبو العالية عن أبي ثمامة الجعديّ قال:

لا يُعرَفُ فينا مجنون إلاّ قيسُ بن الملوّح.

قال: وحدّثني بعض العشيرة قال: قلت لقيس بن الملوّح قبل أن يخالَطَ: ما أعجبُ شيء أصابك في وجدك بليلى؟ قال طَرَقَنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أُدْم، فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي: اطلب منه أدْماً فأتيته فوقفتُ على خبائه فصحتُ به: فقال ما تشاء؟ فقلت: طرقنا ضيفانٌ ولا أدْم عندنا لهم فأرسلني أبي نطلب منك أدْماً. فقال: يا ليلى أخرجي إليه ذلك النَّحْي فاملئي له إناءه من السّمن، فأخرجته ومَعِي قَعْبٌ فجعلت تصبّ السّمنَ فيه ونتحدّث، فألهانا الحديث وهي تَصبّ السّمن وقد امتلأ القعب ولا نعلمُ جميعاً حتّى استنقعت أرجلنا في السّمن.

قال: فأتيتهم ليلة ثانية أطلب ناراً وأنا مُتَلَفِّعٌ ببُرْدٍ لي، فأخرجت لي ناراً في عُطبةٍ فأعطتنيها ووقفنا نتحدّث، فلمّا احترقت العطبة خرَقت من بردي خرقة وجعلتُ النّار فيها، فكلّما احترقت خرقتُ أخرى وأذكيت بها النّار حتّى لم يبق عليّ من البردِ إلاّ ما وارى عورتي وما أَعْقِلُ ما أصنع".

◆ النّموذج الثّاني من محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج. 2، ص : 210

"أخبرني بعض الأدباء في تلطّف محبّته ورقّة معناها، أنّه قَرُب يوماً من حيّ ليلى في وادٍ كثير الثّلج، في زمن البرد، وهو يأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده فتذيبه حرارة الفؤاد. فرآه نسوة من الحيّ، فجاء بعض فتيات الحيّ إلى ليلى فأخبرْنها بما رأين من أمر قيس، فخرجت مسرعةً معهنّ حتّى أشرفت عليه وهو على تلك الحالة، وهو ينادي ليلى ليلى، فرمت بنفسها وعانقته، وضمّته، وقالت: أنا بغيتك، أنا مطلوبك، أنا قرّة عينك. فنظر إليها وتأوّه. فكادت الزّفرة تحرقها وقال لها: إليك عنّي فإنّ حبّك شغلني عنك، وأخذ في ولَهِهِ ينادي ليلى ليلى".

إذا قارنّا أحد هذين النّصّين بالآخر تبيّنتْ لنا فيه وجوه شبه ووجوه تقابل و تباين كما يبرز ذلك في الجدول التّالي:

علاقة النّصّ بالنّصّ	النّموذج الأوّل	النّموذج الثّاني
التّشابه	البحث عن ليلى	البحث عن ليلى
	الالتقاء بليلى	الالتقاء بليلى
	العشق المفرط «ما أعقل ما أصنَعُ...»	العشق المفرط «الوَله»
التّقابل و التّباين	الالتقاء كان عميقاً إلى حدّ عدم التّعقّل	الالتقاء لم ينشأ عنه تلاحُم بل افتراق بين الأجساد
	حبّ ليلى بروحها وجسدها	الابتعاد عن ليلى الجسد والتّعلّق بروح ليلى وبمثالها
	طلب النّار والاستلذاذ بالاحتراق بها	السّعي إلى التّخلّص من الحرارة بالثّلج
	ذكر لبعض أسماء الرّواة	غياب التّسمية

إنّ هذا الجدول يبرز تناظراً بين النّصّين ذا وجوه مختلفة، كما يبرز وجوهاً للتّباين متنوّعة قائمة في التّفاصيل، وفي صور العلاقة بين الباحث (المجنون) والمبحوث عنه موضوع العشق (ليلى). وهذا التّباين في التّفاصيل يضحي -متى تأمّلناه- تبايناً في طريقة العشق نفسها وفي تصوّره أصلاً. فالعشق يتمّ بالالتقاء بين العاشق والمعشوقة في النّموذج الأوّل، ويتجسّم في تبادل عباراته التي تُخرِج الطّرفين من الزّمن الموضوعيّ التّاريخيّ. أمّا في النّموذج الثّاني فإنّ اللّقاء لا ينشأ عنه تجسيم للعشق، بل تباعد وقد استحالت لَيْلَى عند المجنون مثالاً يُنَادَى. والعاشق في النّموذج الأوّل كان، وهو يبحث عن نار حقيقيّة، يبحث عن نار يحترق بها وهي نار العشق وقد احترقت النّار على النّار وبها، وصارت النّار العاديّة ناراً رمزيّة في مشهد طريف "فلمّا احترقت العطبة خرقت من بُرْدي خِرقة وجعلت النّار فيها فكلما احترقتْ خَرَقْتُ أخرى وأذكيتُ بها النّار حتّى لم يبق عليّ من البرد إلاّ ما وارى عورتي وما أعْقِلُ ما أصنع". أمّا مجنون «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» فباحث عن ثلج يُطفئ أوار النّار المتأجّج، وهو مُعرِض عن لَيْلَى الجسد وقد استحالت في ذهنه مثالاً.

وبهذا تزداد صور المجنون تنوّعاً واختلافاً وتتضاءل ملامح سمة التاريخ في شخصه وتتعاظم سمات التخيّل. أوهمت النصوص بالتوثيق لِمَنْ وُجِدَ في التاريخ، وتحقيق مبدأ النقل عمّا كان، ولكن ما جاء فيها من متباين الصّور يُحَوِّل مبدأ النقل الموفي بشروط المنقول عنه إلى مبدأ احتمال وقوع ما لم يقع بالفعل، وهو ما يحوّل الشّخصَ من التاريخ إلى شخصيّة أقرب إلى منطق التخيّل والصّنعة. على أنّ هذا التحوّل من الشّخص إلى الشّخصيّة لم يتمّ بمختلف صور المجنون عبر خطابات ونصوص مختلفة حسبُ، وإنّما تمّ أيضاً بين متباين المقامات فكيف يبدو ذلك؟

2. المجنون من الشّخص إلى الشّخصيّة بين متباين المقامات

إنّ ما رأيناه من صور للمجنون مختلفة بين النّصوص ليس البتّة منفصلاً عن مختلف مقامات القول وسياساتها التي تنزّلت فيها. وتعريف المقام يقتضي أن نصله أولاً بالمقال أو السّياق النصّيّ الذي يرد فيه (Cotexte)، ويقتضي ثانياً أن نحدّه باعتباره متكوّناً من أطراف القول، إذ ما من قول إلاّ وله جهة يتجه إليها، كما يتضمّن المقام عناصر أخرى أكثر من أن تُحْصَى كزمن القول ومكانه وهيآت المتخاطبين وانتماءاتهم[1]. ومن أهمّ مكوّنات المقام الأعمال المضمّنة في القول (Actes illocutionnaires) الجارية فيه، والعمل المضمّن في القول هو العمل الذي نحققه ونحن نقول بعض الأشياء، على خلاف العمل القوليّ الذي هو قول بعض الأشياء[2].

وإذا نظرنا إلى المجنون متواتراً ذكره في الآثار والنّصوص المذكورة من زاوية المقامات تبيّن لنا أنّ تغيّر صوره مرتهن أيضاً بسياسة القول. فالأصبهاني يُوهم كما سلف عليه القول بالتأريخ للمجنون في نطاق التأريخ للأشعار التي غنيّت. فعمله المضمّن في القول الأكبر هو الإخبار وإثبات ما حَصَل بأخباره، والمقول له هو من جنس الباحث عن معلومات في وثائق محكمة. فالعمل المضمّن في القول، من هذه الجهة، عمل جادّ (Sérieux) على حدّ تعبير «سيرل» (Searle). ولكنّ هذا العمل الجادّ في ظاهره ينقلب إلى عمل غير جادّ وغير صادق إذ يقتصر وجوده على النصّ. فهو عمل متصنع مزعوم (Acte feint) [3] عندما

---

1) انظر:

Françoise Latraverse, La pragmatique : histoire et critique, éd. Pierre Mardaga, 1987, p. 196.

2) انظر:

J. Austin, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gilles Lane, éd. Seuil, 1970, p. 113..

3) J. Searle, Sens et expression, éd. Minuit, 1982, p. 103.

تتراجع قيمة التّوثيق، ويتعاظم شأن التّخييل في النّصوص، ذلك أنّ الأصبهاني يذكر في أكثر من موضع أنّ عمله في الكتاب ليس التوثيق حسب، بل الإخبار عن مستحسن الأنباء، يقول: ''وأنا أذكر ممّا وقع إليّ من أخباره جملاً مستحسنة، متبرّئاً من العهدة فيها''[1]، ويقول: ''وذكر خالدُ بن جميل وخالد بن كلثوم في أخبارهما التي صنعاها''[2]. وهو يوهم بإسناد أحاديثه عن المجنون ولكنّ أسانيده كثيراً ما تَرِدُ مختلّة على نحو السّند في الخبر الذي حلّلناه.

وبهذا يصبح مقام القول واقعا بين متلفّظ مُموِّه يَروي طريف الأحداث دون اعتبار لقيمتها الوثائقيّة ومتلفّظ له يبحث عن وجوه الطّرافة فيها. ويصبح العمل المضمّن في القول الإخبار غير الجادّ لمتلفّظ له يبحث عن الإمتاع. وفي هذا المقام يتنزّل المجنون شخصيّة طَرَفَها المؤلّف المموِّه فاستطرفها المقول له.

أمّا إذا انتقلنا إلى مقام القول في كتاب «محاضرة الأبرار» فإنّنا نجد أنّ المؤلّف ينزّل أخبار كتابه في نطاق الأخبار السّائرة وسير الأوّلين من الأنبياء صلوات الله عليهم والأمم، وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق''[3]. فالعمل المضمّن في القول المشتقّ من هذا الكلام هو عمل الإخبار والإثبات ينجز لمن يسعى إلى الاعتبار بسِيَر الأخيار، إذ الكتاب وَرَد للإخبار عن طبقة الأبرار والأخيار من الخلق. وبهذا يكون المجنون شخصاً تثبت أخباره للمتقين من النّاس. ولكنّ ابن عربي وهو يُعْرِض أحياناً عن الإسناد الصّحيح من قبيل ما رأيناه في الخبر الذي نظرنا فيه سابقاً ''أخبرني بعض الأدباء في تلطّف محبّته ورقّة معناها''، يُفقِد دور العامل بالقول (Illocuteur) المثبت لِمَا وقع وحَصَل ويُكسبه دور العامل بالقول المُصوِّف للحديث عن المجنون بحسب الموقع الصّوفيّ الذي يتكلّم منه، بحيث يتصوّف المجنون، ويصبح صوفيًّا أكثر من كونه مجنوناً. وبذا يتنزّل القول بين متلفّظ متصوِّف تَستَتِرُ وراء المخبر (الأخباريّ) ومتلفّظ إليه باحث عن أخبار المتصوّفة، ويصبح العمل في القول غير مطابق للعمل الأصليّ، ومباينا للأعمال في القول التي حملتها الأقوال عن المجنون في الأغاني، ومداره على الدّعوة غير المباشرة إلى اعتناق التّصوّف مذهباً في الحياة، والإعراض عن التّصوّر المادّيّ الحسّيّ لها.

خاتمة

نصل إلى القول إنّ دراسة شخصيّة المجنون في أكثر من خطاب ونصّ من شأنها أن تبرز غِنى هذه الشّخصيّة بتعدّد صورها وتباينها وهو ما يكسبها سمات

---

1) الأغاني، ص: 12.

2) نفسه، ص: 25.

3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج. 1، ص: 5.

تخيليّة أدبيّة لم تكن لها في الأصل. فالأدبيّة ليست رهينة النّصّ المفرد كما ذهب إلى ذلك جلّ الإنشائيّين البنيويّين، بل هي قد تتأتّى من النّصوص التي قدت طرائق قددا في الأصل وقد اجتمعت على شخصيّة واحدة، يُستصفى منها متباين الصّور والأشكال. والتّباين ليس متأتّياً من ورود الحديث عن المجنون العامريّ في مختلف النّصوص حسب، بل تأتّى أيضاً من تباين المقامات التي يُنزل فيها الحديث عنه.

وممّا نستصفيه من عملنا هذا أنّ تحوّل قيس بن الملوّح من كونه شخصاً تاريخيًا إلى كونه شخصيّة قائمة بالكلام متشحة بوشاح التّخيّل الأدبيّ، إنّما هو يرتبط بفعل قراءة نشيطة لا تستقرّ على حال. فالقارئ عندما يباشر قراءة أخبار المجنون، إنّما يفعل ذلك ضمن عَقد مرجعيّ يصله بما يقرأ. ولكنّه قد يَعْدل عن هذا العَقد إلى آخر قائم على التّخيّل عندما يَلوحُ له قيس بن الملوّح في ألبسة متغايرة. فهو متردّد بين أن يتعامل مع نصوص المجنون تعامل المستفيد من المعلومات التّاريخيّة، و أن يزاول أعمالاً فيها الكثير من الانزياح عن مقتضيات التّوثيق. والطّريف أنّ اعتماد شروط الإثبات والتّحقيق شرط أساسيّ لإشاعة الإمتاع والمؤانسة، إذ لو كان الكلام عن المجنون متخيّلاً في الأصل لَما أثار الدّهشة والعجب.

وبعد..

ألا يرجع النّزوع إلى تخييل الشّخصيّات المرجعيّة كقيس بن الملوّح وعنترة بن شدّاد وأبي نواس وهارون الرّشيد إلى كون الحديث عن هذه الشّخصيّات اندرج في ثقافة شفويّة والتبس بمخيال النّاس، وعندما تحوّل الخبر من المشافهة إلى الكتابة لم يفقد الكثير من خصائص الشفوية و انفتح على آفاق للتخيل ارحب؟

المصادر والمراجع(*)

المصادر

- الأصْبَهَاني، **الأغاني**، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، ط. 1983 (ط. دار الثّقافة، بيروت).
- التّنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، دار صادر، بيروت، ط. 1، 1972، ط. 2، 1995.
- ابن عربي (محيي الدّين)، **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، دار صادر، بيروت، (د. ت.).

*) رتّبناها ترتيباً ألفبائيًا دون اعتبار «أبو» و«ابن».

المراجع العربيّة

•إبراهيم (عبد الله)، **السّرديّة العربيّة (بحث في البنية السّرديّة للموروث الحكائيّ العربيّ)**، المركز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، 1992.

المراجع الفرنسيّة

•AUSTIN, ***Quand dire c'est faire***, Traduction et introduction de Gilles Lane, éd. Seuil,Paris 1970.

•BARTHES (R.), ***Le discours de l'histoire***, in : ***Essais critiques le bruissement de la langue***, éd. Seuil, 1984.

•FOKKEMA (DOUWE), ***Questions épistémologique***, in : ***Théorie littéraire*** (collectif), Sous la direction de MARC ANGENOT, JEAN BESSIERE, DOUWE FOKKEMA, EVA KUSHNER, éd. P.U.F., 1989.

•HAMON (PHILIPPE), ***Statut sémiologique du personnage***, in : *Poétique du récit* (collectif), éd. Seuil, 1977.

•JIMENEZ (PEDRO PARDO), ***Personne et personnage dans l'infraction métaleptique***, in : ***Le personnage romanesque*** (collectif), Cahiers de narratologie, n° 6, Associations des publications, 1995.

•LATRAVERSE (FRANÇOISE), ***La pragmatique : histoire et critique***, éd. Pierre Mardaga, 1987.

•LEJEUNE (P.), ***Le pacte autobiographique***, éd. Seuil, 1975.

•MANUEL ÁNGEL VAZQUEZ MEDEL, ***La construction du personnage comme procès*** transdiscursif, in : ***Le personnage romanesque***.

•RICŒUR (P.), ***Temps et récit***, t. III, Le temps raconté, éd. Seuil, Paris.

•SCHAEFFER (JEAN MARIE), ***Qu'est ce qu'un genre littéraire ?*** éd. Seuil, 1989.

•SEARLE (J.), ***Sens et expression***, éd. Minuit, 1982.

•SZEGEDY-MASZAK (MIHALY), ***Le texte comme structure et construction***, in : ***Théorie littéraire***.